أمير الشعر في العصر القديم

امرؤ القيس وعقيدته الدينية

مذاهب العرب وعقائدها

يحسن بنا قبل الاخذ فيما نحن بسبيله من دراسة عقيدة امرىء القيس الدينية ان نلمّ الماماً بشيء مما كانت عليه ديانات العرب في ذلك العصر الجاهلي . فقد كانت عقيدتهم واهنة ونحلهم مختلفة ، ومذاهبهم متباينة . فجاء الاسلام والنزعات الدينية لديهم ترجع الى ثلاثة اصول كان لها الاثر الاكبر في نظمهم الاجتماعية ، وحياتهم العقلية ، وفي اخلاقهم وعاداتهم . وهذه الاصول الثلاثة هي اليهودية والنصرانية والوثنية والاخيرة كانت الدين الغالب اذ ذاك حتى عمّ انتشارها جلّ اصقاع الجزيرة العربية

فمنهم الصابئة عبدة الكواكب والاجرام السموية ومنهم عبدة التماثيل والاصنام ومنهم من عبد الملائكة والجن .... فالشمس معبودة حمير ، والقمر والدبران إلاها كنانة ، والمشترى إله لخم وجذام ، وسهيل إله طيء ، وعطارد اله اسد ، واللات إله ثقيف ، ومناة إله هذيل وقضاعة ، ..... وغير ذلك من الكواكب والاصنام التي اختصت بعبادتها قبائل بأعيانها وأنهُ ليطول بنا القول ان نحن اسندنا الى كل قبيلة الاهها وذكرنا جميع اصنامها . وعلى الجملة فقد جعلت العرب آلهة من الشمس والقمر والشعرى والثريا والجوزاء والجدي والحمل والدبران وسهيل والمشترى والعبور وعطارد ..... ومن اصنامهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى والهبل الاكبر وأساف ونائلة ..... وغيرها مما ورد ذكره في كتاب الاصنام وكان في الكعبة تمثالان لابراهيم الخليل وولده اسماعيل وكل منهما قابض على قداح الكهانة ومعرفة المستقبل . ومن شعائرهم الدينية القرابين يذبحونها على النصب ويتقربون بها الى اصنامهم وآلهتهم . وكانوا يحجون ويعتمرون ويحرمون ويطوفون .... وكانوا يقفون مواقف الحج كلها ويهدون الهدايا ويرمون الجمار ويعظمون الاشهر الحرم فلا يكون فيها عدوان ولا قتال

اما اليهودية فشعائرها وتعاليمها تستند من التوراة وأسفار العهد القديم والتلمود وبقية الاسرائيليات . والمسيحية مرجعها الاناجيل ورسائل الحواريين وقد دخلت كلتا الديانتين

اليهودية والنصرانية الى بلاد العرب لقربها من فلسطين التي هي مهد هذين الدينين، ولان اليهود طالما نزحوا الى بلاد العرب مما يلي بلادهم اما فراراً من القتل واما التماساً للرزق. وقد سكن كثير منهم في بلاد العرب فانتشر دينهم حتى بلغ بلاد اليمن في ايام ذي نواس الحميري. اما عن دخول النصرانية الى تلك البلاد فوق ما تقدم — على ما يقولون — ان القديس توما كان اول من بشر بها في بلاد اليمن كما بشر بها بولس الرسول في اطراف الشام فاعتنقها كثيرون من عرب الحيرة وغسان وكندة وغيرهم. ولما اضطهد النصارى في القرنين الثالث والرابع في مختلف الاقطار المسيحية هاجروا الى بلاد العرب وأقاموا فيها

وقد قال الدكتور «التاني» في محاضراته عن تاريخ الفلسفة العربية انهُ ليس في شعائر الاسرائيليين والمسيحيين ولا في كتبهم شيء من مجهود العقل العربي بخلاف الوثنية العربية فان اساطيرها وليدة الفكر العربي وان كان في أصل نشأة الكثير منها النقل والتقليد

والعقائد الوثنية العربية غير محكمة التأسيس وغير قائمة على نظريات عقلية واضحة او معتقدات عامة شاملة. فقد اختلفت وجهة نظرها في المبدأ الاول او الخالق فتارة ترتكز على اساس من التوحيد وتقول بإله واحد هو الاكبر وان الآلهة الآخرين ليسوا سوى وسيلة يتوسل بها اليهِ وان عبادتها لا يقصد بها سوى التقرب من ذلك الواحد الاحد والزلفى اليهِ. وطوراً وهو الشائع تخص كل اله بنفوذه الخاص وتطلب عبادته لذاته. وهي مع ذلك في حالة اضطراب في امر المعاد فتراها احياناً دهرية لا يهلك لديها الاَّ الدهر، وليس النشر عندها بعد الموت سوى حديث خرافة وتراها في مواطن كثيرة متعددة تؤمن بالبعث والنشور والثواب والعقاب

وكما ان الوثنية كانت غير قائمة على نظريات عقلية واضحة كانت ايضاً غير مهذبة النواحي والتكوين العام لهذا لم تصل الى تكوين ديانة راقية نوعاً ما، تهذب النفوس وتؤثر في تحديد نظم الاجتماع شأن الوثنيات الاخرى لدى قدماء المصريين والجرمان واليونان والرومان

وكان من جراء ذلك ان بقيت القبائل العربية بدوية في حياتها الاجتماعية محافظة على أخلاقها وعاداتها المكتسبة من طبيعة البلاد معتزة بمجد القدماء وشرف القبيلة جانحة للغزو والسلب وسفك الدماء لأوهى الاسباب

وقد كانت مقاليد الوثنية العربية وازمة اساطيرها بيد الكهنة والعرافين فكان العرب يعتقدون في الكاهن انهُ قديسهم الديني وقدوتهم الصالحة وعالمهم الحكيم الذي يرجع اليهِ في امر الخصومات وتحديد المعاملات وهو طبيبهم القادر على شفائهم فكانوا يتلقون عنهُ اصول الشريعة وقواعد الدين ويستفتونهُ في كل ما يشكل عليهم ويستنبؤنهُ عن مستقبلهم.....

وكانت للكهانة عند العرب لغة خاصة تمتاز بنوع من السجع الغريب المؤثر وتعرف بالغموض والتعقيد لتكون صالحة لكل ما سيحدث وقادرة على صدق الدعوى بان ما حدث انما هو ما تنبأت به واشارت اليه

***

وقد اشتهر في العرب عدد كبير من الكهان كشق وسطيح وخاتر الحميري وسواد بن قارب الدوسي — ومن الكهان من كان ينسب الى قبيلته او بلده ككاهن قريش وكاهن حضرموت. وشاع ذلك على الخصوص في العرافين كعراف اليمامة وعراف نجد كما ذكرهما بدون اسم عروة ابن حزام في قصيدته التي مطلعها

خليلي من علیا هلال ابن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظراني

وايضاً نبغ في الكهانة والعرافة عند العرب عدد كثير من النساء ككاهنة اليمن التي أنذرت بخراب سد مأرب ومجيء سيل العرم وزرقاء وسلمى الحيرية وعفيراء وفاطمة الخثعمية وزرقاء اليمامة وغيرهن من ذوات النجدة والاحترام . وعلى حاشية هذه الديانات الثلاث ساق القدر الى الجزيرة العربية دين طفيلي لم يلق بين الاعراب رواجاً ولم يجد فيهم تربة خصبة. ذلك الدين هو دين الزندقة ومهده الاول بلاد الفرس ويعرف بدين المزدكية نسبة الى مزدك ذلك الرجل الفارسي الذي وجد على عهد قباذ وانتحل هذا الدين وذهب فيه الى إباحة الاموال والنساء والمتاع وجعل الناس شركة فيها فهو دين اباحي اشتراكي وقد ناصر هذا الدين كسرى قباذ وتعصب لصاحبه ودعا الناس الى اعتناقه وحمل رجاله على التشيع له راجياً ان يستولي بذلك على ما في ايدي رعيته من الاموال والمتاع وكان من شايعه من العرب الحارث الكندي جد امرىء القيس وملك كندا فحمل ذلك الدين الى البلاد العربية لا مقتنعاً به ولا راضياً عنهُ ولكن لامور سياسية وشهوات خاصة بسبب ما كان بينهُ وبين المنذر ملك الحيرة الذي حاق به مكر قباذ وسخطه فكان نصيبه التشرد لانهُ ازور عن هذا الدين ونأى عنهُ بجانبه ولم يتشيع لمبادئه . على ان هذا الدين لم يكد يتجاوز عتبة الجزيرة ويخطو فيها خطوة يسيرة الا ونكص على عقبيه وارتد خائباً مدحوراً فقد فشلت فيه السياسية أفاعيلها فقضت عليه وهو في مهده . فان قباذ أدركتهُ المنية وتولى عرش الكسروية بعده انو شروان وكان ساخطاً على المزدكية ورسولها واشياعها فكان نصيب قباذ القتل مع طائفة كبيرة من المزدكيين وكان نصيب الحارث الكندي التشرد في البلاد وقد تعرضنا بشيء من التفصيل لاسباب سخط انو شروان على المزدكية ومحاربتهُ إياها عند كلامنا على اسرة امرئ القيس

عقيدة امرئ القيس

ولنسرع الى القول في عقيدة امرئ القيس الدينية بعد ان اخذنا بيدك وتخطينا بك القرون ثم طوفنا بك في انحاء الجزيرة العربية وأوقفناك على ما كان فيها من نحل ومذاهب وأهواء وعقائد . فما هو دين امرئ القيس بين ذلك يا ترى ؟ اكان على النصرانية أم دان بالمزدكية أم اعتنق الوثنية أم انتمى الى اليهودية . أما يهودية ذلك الشاعر العظيم فلم يقل بها أحد ولم يقم عليها أي دليل . فلم يبق إلاّ أن يكون نصرانيًّا أو مزدكيًّا أو وثنيًّا آراء ثلاثة قال بها الباحثون ولكل حجة يدلي بها ودليل يستند اليه . فاما اصحاب وثنيته فانهم يستندون إلى تسميته وإلى حادثة من حوادثه . قالوا إن اسمهُ امرؤ القيس وقيس صنم من اصنام الجاهلية فيكون المعنى إنسان القيس أو عبد القيس كما يقال عبد اللات وعبد العزى وفي هذا — على زعمهم — دلالة على وثنية هذا الشاعر . ومن ادلتهم ايضاً ما رواه الاغاني وغيره من ان امرؤ القيس حين خروجهُ لغزو بني اسد مرَّ بتياله وفيها صنم تعظمه العرب يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه الثلاثة الآمر والناهي والمتربص . قالوا ولو لم يكن امرؤ القيس وثنيًّا لما استقسم بهذه القداح عند ذلك الصنم

وذانك برهانان مردودان فان « قيس » وإن كان من أسماء اصنامهم إلا انهُ جاء في القاموس والتاج واللسان وغيرها من معاجم اللغة ان « القيس الشدة ومنهُ امرؤ القيس أي رجل الشدة » وعلى ذلك يكون معنى امرؤ القيس او عبدالقيس ، عبد الشدة كما يقال عبد الجبار وعبد القوي وعبد الحق وعبد المتين وغير ذلك من اسماء المعاني التي تصدق على الله سبحانه وتعالى ويضاف اليها كلمة عبد . ولهذا جوز الاصمعي ان يقول في رواية للعلقة

« تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يامرأ القيس فانزل »

بدل « يامرأ القيس فانزل » لأن المعنى في نظره واحد ولولا ذلك لما اختار تلك الرواية التي تمنع اللبس وتفرق بين قيس الصنم وقيس بمعنى الشدة . على اننا لو سلمنا ان المراد من قيس الصنم فان ذلك لا يبرهن دليلاً على وثنية هذا الشاعر ، لأن استنباط الديانات من الاسماء قد لا يكون لهُ قيمة ولا يوصل إلى نتيجة . فاننا نرى بين المسلمين الآن من يتسمى بعبد الرسول . فهل معنى ذلك انهُ يعبد الرسول ولا يعبد الله . وقد نجد اسماء مشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى كابراهيم وموسى . فلم لا يكون الامر كذلك في الجاهلية ؟ ولقد تسمى جد النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية بعبد المطلب ومع ذلك فهو لم يكن يعبد عمه المطلب بن عبد مناف القرشي وما سولت لهُ نفسه ذلك ولا جال بخاطره شيء من هذا

أما عن دليلهم الثاني فيكفي لابطال زعمهم ان امرأ القيس لما أجال القداح ثلاث مرات وخرج لهُ الناهي في كل مرة جمعها وكسرها وقذف بها في وجه الصنم وقال له « مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقني » فلو كان امرؤ القيس ممن يعبد الاصنام ويعظمها لما القى القداح في وجه الصنم ولا سبه ذلك السباب المقذع

أما استقسامهُ بالقداح فانهُ فعل ذلك اخذاً بعادات الجاهلية ومثل تلك العادات شائعة الآن بين كثير من الامم الراقية ذوات الاديان السماوية

أما عن الرأي الثاني فزعيمه « الأب انستاس الكرملي » الذي ذهب في مجلة المشرق إلى ان امرأ القيس كان على دين مزدك واستند في ذلك الى ما وقع لهذا الشاعر مع النساء من تطليق وزواج وما ارتكبهُ من الفواحش والى ان المزدكية كانت تستحلُّ كل منكر سوى القتل وبعض امور لا يؤبهُ لها . فان مزدك زعيمهم « امرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشراب والمؤانسة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والاهل لا يمنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعهُ » عن كتاب الفهرس لابن النديم . وقال بعد ذلك الاب انستاس إن المزدكيين مراءون في دينهم فهم يوافقون كل من يصادفونهُ بدون ان يبينوا لهُ ماهية دينهم ولكونهم كانوا مبغضين من الجميع لم يدع امرؤ القيس في اشعاره ما يتم منهُ واضحة مذهبه . وجعل اكبر دليل على مزدكية امرئ القيس ان جده اعتنقها في ايام كسرى قباذ ولم يذكر عن امرئ القيس ولا عن ابيه ما يشعر بأن واحداً منهما ترك دين الحارث وتمسك بأهداب دين آخر

كلام وجيه ولكن الرد عليه اوجه ومناقضته الذ واعذب فان استناد الأب انستاس الى سيرة امرئ القيس واعماله تلك السيرة التي لا يستحلها دين مستقيم ليس كافياً للدلالة على مزدكية ذلك الشاعر وإلاَّ صحَّ أن نقول إن أبا نواس وأمثاله من شعراء المجون والفحش في الجاهلية والاسلام كانوا على دين مزدك . ثم أن مزدك على ما رواه الطبري والشهرستاني وابن الاثير وغيرهم كان ينهى عن قتل الحيوان زعماً منهُ ان ذلك من الكبائر وان الانبيات لا يجوز إلاَّ من النبات ولكن امرأ القيس كان على غير ذلك فنقد كان صائداً ماهراً لصف دوابه في وصف خروجه لصيد الاوابد وقنص الوحوش وتساطى لحومها . اما عن افراط امرئ القيس في الزواج فانهُ فعل ذلك جرياً على عادات العرب في الزواج بأكثر من زوجة وكذلك تابع العرب في استباحة الطلاق وليس في ذلك حجة على من يقول بنصرانية امرئ القيس فان بعض فرق النصارى تبيح الطلاق والزواج مراراً

أما عن مزدكية جده الحارث فانا نعلم انهُ اعتنقها على عهد قباذ وبعد ان شب وشاً

على دينه القديم دين آبائه وأجداده . اعتنق الحارث المزدكية لاغراض سياسية حتى يستولي على الحيرة وينزل عن سريرها منافسه المنذر فلم ير بدًّا من ان يشايع قباذ على مايبتغيه . على ان بعض المؤرخين ذكر ان قباذ نفسه لم يعتنق هذا المذهب الا لاغراض سياسية وهي ان يصل الى ما في ايدي رعيته وأتباعه من الاموال والمتاع فقد كان اعيان الفرس واشرافهم يحرزون اموالاً كثيرة وعقارات كثيرة القيمة فأراد قباذ ان يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم فاتحله وتعصب لصاحبه . فقباذ اعتنق هذا المذهب لاغراضه وشهواته وتابعه عليه الحارث الكندي لاغراضه السياسية ايضاً فاذا زال السبب زال المسبب ، فان قباذ قد توفي وتولى بعده ابنهُ انو شروان وعاد المنذر الى عرشه على الحيرة وشرد الحارث في البلاد فلم يعد في حاجة الى ان يظهر بمظهر ديني يخالف عقيدته الاولى التي نشأ عليها آباؤه منذ الطفولة فلا بد انهُ قد ارعوى عن ضلاله ورجع عن غوايته . اما غضب انو شروان عليه فما كان الاَّ انتصاراً وتعصباً للمنذر الذي احبه انوشروان حبًّا جمًّا ولما كان قد اضمره من بغض شديد للحارث منذ كان على عهد والده الذي كان انوشروان ساخطاً على مسلكه ومسلك من كان من اعوانه وشيعته . وما نسي انو شروان حادثة قباذ مع امه ويوم قبّل الارض بين يدي ذلك الزنديق الفاجر

ومهما يكن من شيء فان الحارث كان وقت اعتناقه المزدكية ملكاً على كندة والحيرة وابنهُ حجر كان بمثابة عنهُ فقد كان ملكاً على بني أسد وملحقاتها . وما كان لحجر ولا لامرىء القيس غرض ينبيانه من وراء اعتناق هذا المذهب الذي شهد الاب انستاس نفسه عليه بأنهُ كان مبغضاً من الجميع ولذلك نفسهما لا تحدثهما يوماً من الايام باعتناق مبادئه ولقد كان الحارث نفسه مرائياً في عقيدته التي ظهر بها امام قباذ لانهُ حاكم مسلط والناس على دين ملوكهم والسياسي الحازم من نبس لكل حالة لبوسها

ثم اننا نعلم تلك الحروب التي اثارها امرؤ القيس مطالباً بثأر ابيه ونعلم ايضاً تلك المواقع الحربية التي كانت بين عمه سلمة وشرحبيل والتي قتل فيها كثير من الانفس وانجلت عن قتل سلمة وشرحبيل مع ان المزدكية تحرم القتل والحرب فقد قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل « كان مزدك ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال فأحل النساء وأباح الاموال وجعل الناس شركة فيها » ذلك مذهب مزدك الاجتماعي الذي يحرم القتل وسفك الدماء . فأين أثر ذلك الدين في نفس امرىء القيس وفي نفس عمومته وهم اصحاب تلك الحروب الطاحنة ومما يدل ايضاً على ان المزدكية لم تتغلغل في قلب الحارث نفسه ولم يعتنقها اعتناق المؤمن الموقن وانما كان مرائياً

في تظاهره بها وتشيعه لها ، تلك الحروب التي قام بها الحارث نفسه في بلاد العرب يبغي بها اذلال منافسه والقضاء عليه . على أن هذا الدين لم يلق بين العرب رواجاً ولا يكاد يعرفهُ منهم احد لان العربي لا يرضى أن يباح عرضه وماله وهو صاحب الشمم والاباء والعزة والانفة المضروب بها المثل

فلا يمكن بعد هذا ان يكون امرؤ القيس مزدكيًّا ولا بدَّ انهُ كان نصرانيًّا ولقد عده الاب « لويس شيخو » من شعراء النصرانية وليس ادلُّ على نصرانيته من اننا نجد في شعره كثيراً من اقراره بالله وقدرته وحسابه وغيرذلك من عقائد النصارى والاديان السماوية التي لا يعرفها ولا يقرها الوثني ولا المزدكي وانما يقول بها من كان متألهاً كقوله

ارى ابلي والحمد لله اصبحت ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها

وقوله والله انجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرحل

قال الثعالبي في كتاب الاعجاز والايجاز « هذا بيت من جوامع الكلم فانهُ في الاستنجاح بالله ومدح البر والحث عليه »

وقوله تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا

لما سأله عبيد ابن الابرص

ما الحاكون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناس ؟

***

وفي شعر امرىء القيس أيضاً كثير من الاشارات النصرانية فمن ذلك قوله في مصابيح الرهبان

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

وقوله تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهب متبتل

وقوله يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

وقوله أتت حُجَج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رُهبان

وقوله يصف كلاب صيده وقد ادركت قنيصة ذاكراً ان حاج بيت المقدس يتبرك بثوبه ولذان النصارى ومثل تلك العادة لا يعرفها إلا من نشأ في بيئة نصرانية

فادركنهُ يأخذن بالساق والنسا كما شرق الولدان ثوب المقدس

وقوله يذكر الاران وهو ثابوت النصارى

وعنس كالواح الاران نسأتها على لاحب كالبرد ذي الحبرات

حتى في ساعة فجوره وفحشه ماكان ينسى دينه وربه . انظر اليه حين يقص موقفاً بلغ

فيه غاية الفحش والهجر وهو مع ذلك يظهر تألهه : في قوله

سموت اليها بعد ما نام اهلها سموُّ حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله انك فاضحي ألست ترى السمار والناس احوالي
فقلت يمين الله ابرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صال

ولاجل ان يفهم القارئ قيمة فحش هذا الموقف نذكر له ان بعض شرّاح ديوان امرئ القيس وشعره فسروا البيت الاول بما يلتئم مع تغيير كلمة « اليها » في البيت الاول بكلمة « عليها »

***

هذا استدلال على نصرانية امرئ القيس أخذاً من قوله واشعاره. اما من جهة التاريخ فان المؤرخين ذكروا ان النصرانية كانت منتشرة في كندة . ومن الدلالات التاريخية التي لا يمكن ان يتطرق الشك اليها ما ذكره ياقوت في معجم البلدان عن عمة امرئ القيس هند بنت الحارث المعروفة بهند الكبرى زوجة المنذر بن[1] ماء السماء وام عمرو بن هند. ذكر ياقوت عنها أنها ابتنت ديراً يعرف بدير هند الكبرى وكتبت في صدره « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو وامة المسيح وام عبده وبنت عبيده » . وانت تجد في شهادة ياقوت نصرانية هند ونصرانية ولدها عمرو ونصرانية أبيها الحارث بن عمرو الكندي طريد انوشروان والمنذر بن ماء السماء والذي شايع المزدكية مرائيا حيناً من الدهر وتلمح فيها ضمناً نصرانية امرئ القيس واجداده الأولى الذين لا بد ان امرأ القيس نشأ على دينهم . ثم ان فاطمة بنت ربيعة ام امرئ القيس من تغلب وتغلب كلها كانت على دين النصرانية . ومن كل هذا نقف على حقيقة دين ذلك الشاعر . ولئن قلنا بنصرانيته فلا يمكننا ان نقول انه كان متمسكا بدينه كمسك البررة الاطهار والقسس والرهبان ، بل انها كانت نصرانية شخص مستهتر لا يبالي كثيراً بالدين وفرائضه والله اعلم

دار العلوم العليا محمد صالح سمك

---

(١) المنذر هو زوج هند ابنة الحارث الكندي وهو بعينه منافس الحارث ايضاً ومن هذا نعلم ان المصاهرة والقرابة لم تحل دون منازعتهما ووقوع الحرب بينهما ومن ذلك نعرف مقدار القطيعة التي كانت بين الامم العربية في العصر الجاهلي قبل أن يلم الاسلام شعثها ويجمع كلمتها